في مفهوم التصوف

أ . المكي محمد بن قبلية
شعبية المرقب

مقدمة

تاريخ الأمم وآثارها هما خير الشواهد على حياتها ، ورسوخ أصولها في عمق الدهر ، لأنهما يؤلفان تراثها الذي هو المقياس الدال على مدى عراقتها ، ودرجات تقدمها ورقيها من جهة ، الكاشف عن دركات انحطاطها وما تمرغت فيه من ضعف وتخلف من جهة ثانية ، إذ تراث الأمم يعبر أصدق تعبير عن كل شأن من شؤونها الفردية والاجتماعية ، ويبين اهتمامها وعنايتها في التنشئة على صعيد الآحاد ، من أجل صنع لبنات صالحة لبناء أمة صالحة ، وعلى صعيد الجماعات من أجل حفظ الكيان والاحتفاظ بالمركز السامي الذي تحتله ، إن هي تدرجت في مراقي الحضارة ، أو إنه على العكس ينبئ بفشلها ، إن هي عاشت في ظل الخمول والمسكنة ، فمما لا يقبل الجدل هو أن تراث الأمم مرآة حياتها التي تحدد هويتها ، إذ تنعكس عليه صور نهضتها، إن كانت ذات جهد حضاري موضح خطواتها في مجال البناء والإنشاء ، أو يظهر وهنها والخور الذي يدب في أحشائها ويؤدي بها إلى الانحدار بعد السمو ، فيما لو أصيبت بالتقهقر بعد التقدم في فترة من الفترات .

وتعيش أمتنا العربية الإسلامية اليوم حالة من الضعف والوهن والخنوع والتقهقر ، ويتعرض الإسلام والمسلمون لحملات التشويه ، فكل عمل إرهابي تدميري يوصف بأن منفذيه إسلاميون وأُلصقت تهمة الإرهاب بالإسلام والمسلمين ، والإسلام

براء من هذه التهمة براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام وقد ظهر الكثير من الطوائف والملل والفرق الإسلامية ، بدعوات كثيرة وأفكار غريبة ومبادئ لم يسبق أن عرفها الإسلام والمسلمون ، وكل فرقة أو جماعة تدعي أنها على الحق ، وأن الباقين هم واهمون وأعداء للإسلام والمسلمين ، ومن هذه الطوائف والفرق ، الصوفية التي أُسيئ إليها ، ولم يفهمها البعض على حقيقتها ، وعتبرها البعض أفكارا غريبة عن الإسلام ، وهي دس من أعداء الإسلام .

وبعيداً عن الفهم الاستشراقي للتصوف ، وقد جعل منه لاهوتاً سلبياً ، أستطيع القول إن التصوف ليس فقط رؤيا يراها السالك في العبادة والتأمل والتفكر ، بل اجتاز ذلك ليكون حركة اجتماعية ، تستند إلى منظومة متكاملة ، يدخل فيها على السواء تنظيم العلاقة بالمطلق (الله ، الغاية الأنطولوجية) ، والمحدود (الجسد ، الطبيعة) .

لقد سادت فكرة التخلي طويلاً ، ومرد ذلك إلى الأصول الشرقية التي اختارت العزلة ونبذ الحياة العامة ، والدعوة إلى الانزواء والإنصات إلى « مونولوج » الذات ، لكن هذا الاتجاه ، وإن كان له مريدوه في التصوف الإسلامي ، إلا أنه تراجع أمام اتجاه آخر ظهر عليه ، واحتاز مكانة خاصة منذ أن قدم المتصوفة العرب أمثلتهم ، في الفداء والتضحية والخدمة العامة .

لقد بدأ التصوف شرقياً ، وونتهى وسطياً ، واستفاد من الأفكار المعتقدية والديانات الشرقية ، ما نعلم منها وتلك التي أمحت آثارها ، السماوي منها والمجتمعي ، الجمعوي منها والجماعي ، ولهذا أقول إن التصوف أشمل وأعمق من الطقس والشعيرة ، من حيث إنه أقدم تجربة في الاستفادة من مجمل الرصيد الإنساني في فهم الذات والآخر والأشياء ، أي في تكوين رؤية للحياة .

لا يهمل الصوفي شيئاً في الحياة العامة ، مهما كان صغيراً ، دون أن يدرجه في اهتمامه ، فسواء تعلق الأمر بتهذيب السلوك الفردي مثلاً ، أو بقيادة الجموع في الجهاد، أو بالانصراف إلى خدمة الآخرين تطوعاً ، أو حتى بالرقص في حلقة ذكر ، فإن الصوفي ، وهو يرى الله في الآخرين ، قادر على المواءمة بين الثنائيات الدهرية وله صيغته الخاصة في التوفيق بينها ، ولعل هذا ما يميز التصوف العربي الآن عن غنوصية المذاهب الأخرى ، كما هو شأن المذاهب اليهودية والمسيحية ، أو الإسلامية التي مازالت تحتفظ بسمات فارسية وهندية .

الإسلام دعوة تذهب بالقول والفعل إلى خير العالم ، وله تقاليد صريحة في هذا الشأن ، والظاهر أن التصوف بما يتضمنه من فهم متوازن للإسلام يظل هو الأقدر على تثمير هذه الدعوة ، وتنميتها في العالم ، والتصوف وحده ، لا الدعوات المشبوهة التي لم تقد سوى إلى التطرف ، وتشويه سماحة الدين وطهر نيته .

ولابد من الإشارة إلى نقاط الالتقاء بين التصوف الإسلامي وثورة الفاتح ، هذه الثورة الإسلامية :

* التصوف في وجه من وجوهه المشرقة ثورة على القيم الهابطة السلبية في حياة الأفراد والشعوب ، ليترقى إلى عقد صلات روحية عليا برب العالمين ، وهكذا كان ولم يزل الفاتح ثورة من أعظم ثورات العصر الحديث .
* التصوف الإسلامي جسَّد الصبر خلقا من أخلاق الإسلام والمسلمين لتعرضه لكثير من الحملات الضارية المتوالية ، ويضطر المتصوفة إلى التخلق بالصبر ، والوقوف في خندقه لصد هجمات المتطاولين عليه ، وهكذا تقف الجماهيرية وشعبها في مسيرة تحد ومواجهة من أجل النهوض بمسيرة الحياة .
* أمد التصوف الإسلامي مسيرة الدعوة الإسلامية بكثير من المجاهدين والثوار الذين غيروا وجه التاريخ ، وأدخلوا الناس في دين الله أفواجا ، وهكذا صنعت الجماهيرية حيث أمدت التاريخ الإنساني ولازالت ، بالمجاهدين والثوار وعلى رأسهم شيخ الشهداء ، أسد الصحراء ، عمر المختار –رحمه الله– ، ومعمر القذافي الإنسان والثائر .

في هذه الورقة البحثية «في مفهوم التصوف» سأتناول مفهوم التصوف ، وذلك وفقاً للنقاط التالية :

1. مفهوم التصوف

التصوف نزعة روحية توهجت في خاطر الإنسان منذ القدم ، فكانت تلك النزعة بمثابة الباعث الخفي الذي دفعه للبحث عن الحقيقة المطلقة ، بهدف إدراكها أو الاتصال بها وفق منهج معين في وجدانه ، وسأحاول هنا التعرف إلى مفهوم التصوف وفق الآتي :

المفهوم اللغوي للتصوف

يشير محمد فريد وجدي [1] إلى : « صاف » الكبش يصوف صوفاً كثر صوفه فهو أصـوف . « صـوّفه » جعلـه صـوفياً . « تـصوّف » صـار صـوفياً . « الـصوف » شـعر الشاة . « الصوفاني » الكبش الكثير الصوف . « الصوفي » هو العامل بمذهب الصوفية .

أما الدكتورة عبلة الكحلاوي [2] ، فتشير إلى « إنها كلمة مشتقة من لفظـة تـصوف أي ارتـداء الـصوف ، وذلـك لاشـتهارهم بارتـداء الـصوف اعتقـاداً مـنهم أنـه رداء الأنبياء » . وقيل: إنها مشتقة من « الصوفة » أي الخرقة التي لا يعبأ بها أحد ، وذلك كناية عن أن الصوفي في تواضعه وافتقاره واستكانته كالصوفة الملقاة البالية . وقيل: إنهـا كنايـة عن مكان ، فالصوفي مشتقة من صوفة كما لو قلنا « كـوفي » مـن الكوفـة ، وقـد سُـموا بذلك لأنهم هم الواقفون في الصف الأول بـين يـدي الله ، وقيـل: إنهـا مـشتقة مـن لفظـة « الصفة » نسبة إلى المكان الذي أعد للفقراء المهـاجرين في عهـد الرسـول ﷺ ، حيـث كانوا يجتمعون بالمسجد ، لا يشتغلون إلا بالعبادة .

ويورد د . محمد مصطفى صوفية [3] « هل اشتقاق التصوف مـن الـصُّفَّة ؟ أو مـن الصِفة التي معناها اتصاف بالمحامد وترك للأوصاف المذمومـة ؟ أو هـو مـن الـصفاء؟ وهذا هو المختار في اشـتقاق التـصوف ، الـصفاء المترتـب علـى الاتـصاف بالمحامـد ، وترك الأوصاف المذمومة ، فالصفاء ثمرة لترك الرذائل وعمل الفضائل » .

أما سميح عاطف الزين [4] ، فيـشير إلى رد البـاحثين القـدماء والمحـدثين كلمـة التصوف والصوفية إلى أصول مختلفة :

---

(1) محمد فريد وجدي ، دائرة معارف القرن العشرين ـ دار المعرفة بيروت لبنان ـ الطبعـة الثالثـة 1971 ف المجلـد الخامس ص 585 .

(2) د . عبلة الكحلاوي ، دعوة إلى العودة لأخلاق الإسلام ورقة مقدمة إلى ملتقى التصوف الإسلامي العالمي في الفترة ما بين 22 ـ 24 ربيع الآخر الموافق 16 ـ 18 الفاتح 1424 ميلادية 1995 ف جمعيـة الـدعوة الإسـلامية العالمية ص 429 .

(3) د . محمد مصطفى صوفية ، التـصوف منهجـاً وغايـة ـ إضـاءات سـريعة مجلـة الجامعـة الأسمريـة ، العـدد الأول 2003 ص 214 .

(4) سميح عاطف الزين ، الصوفية في نظر الإسلام ـ الشركة العالمية للكتـاب ـ دار الكتـاب العـالمي ـ بـيروت لبنـان ـ الطبعة الرابعة 1993 ف ص 14 ـ 17 .

- فقال فريق إنها تعود إلى أصل إسلامي ، أي إلى « الصُّفَّة » وهي زاوية أقامها رسول الله ﷺ خارج مسجد الصفاء بالمدينة ، ذات حيطان ثلاثة ، فكان بعض فقراء المسلمين ، وخاصة من أولئك المهاجرين الذين لم تؤَمَن لهم بيوت في المدينة يجتمعون فيها .
- وقال فريق آخر من الباحثين إن اسم الصوفي جاء من « الصوفيين » ثم تطور فصار صوفيا ، أو إنه جاء من كلمة « صفوي » وصار « صوفيا » أو إن اشتقاق الصوفي من الصف ، بمعنى أن الصوفي من حيث الروحانية يعتبر في الصف الأول بين يدي الله تعالى أو لاتصاله به ﷻ .
- وفريق آخر من العلماء ينسبون اسم الصوفي إلى الصفاء أو الصفو ، بمعنى أن الصوفي هو واحد من خاصة الله الذين طهر قلوبهم من كدرات الدنيا ، أو أنه من صافى ربه فهو صوفي . هذا في المفهوم اللغوي للتصوف

المفهوم الإصطلاحي للتصوف وأصل التسمية

ليس للتصوف تعريف واحد ، فإن كل متصوف يضع للتصوف تعريفاً يتفق مع الاتجاه الذي يسلكه ، والدرجة التي وصل إليها في ذلك الاتجاه ، فأبو محمد الجريري، مثلاً ، يرى أن التصوف : هو الدخول في خلق سني ، والخروج عن كل خلق دني [1] ، في حين يراه معروف الكرخي « ت 227 هـ » بأنه الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق [2] ، أما الجنيد البغدادي « ت 298 هـ » فيرى أن التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به [3] .

ولا ريب في أن الإمام أبا حامد الغزالي « ت 505 هـ » كان خير من صور صعوبة تعريف الصوفية ، عندما قال: « ثم إني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر علي من

(1) د . رؤوف الشمري ، التصوف الإسلامي ، أدواره وأعلامه حتى نهاية القرن الخامس عشر ، مجلة فضاءات تصدر عن المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ـ العدد العاشر ، الحرث نوفمبر 2003 ف ص 16 .
(2) المصدر السابق ص 16 .
(3) المصدر السابق ص 16 .

العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي زيد البسطامي ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقتهم بالتعلم والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبذل الصفات» [1] .

أما محمد فريد وجدي ، فيرى أن التصوف هو مذهب ، الغرض منه تصفية القلب عن غير الله والصعود بالروح إلى عالم التقديس بإخلاص العبودية للخالق والتجرد عما سموه ، هذا المذهب قديم كقدم النزعة التي أوجدته ، فإن الإنسان منذ ألوف السنين أدرك أن خلف هذه الغلف الجسدانية سراً مكنوناً لا يستثيره ، إلا إرهاق هذا البدن بالمجاهدات ، لإضعاف سطوته والحط من سلطانه ، فنشأ هذا المذهب في كل أمة راقية ، وليس شكلاً مناسباً لعقولها وأفكارها ، وهو معروف في الهند والصين منذ ألوف السنين ، وله عند الهنود أساليب شديدة على النفس ، منها أن يظل الرجل سنين لا يتكلم ، بل يقرأ في نفسه بلا صوت ما يكون قد أمره أستاذه بتكراره [2] .

ويرى د . محمد مصطفى صوفية أن التصوف وصف حادث لم يعرفه المسلمون أول الأمر ، وكان وصفهم «مؤمن» ، «مسلم» ، ثم بعد انتشار التصوف كانوا يصفون «بمتصوف» [3] ، ويعرف علم التصوف بقوله : هو علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس ، أي عيوبها وصفاتها المذمومة من الغل ، والحقد ، والحسد ، ونحوها ، والتصوف عقيدة ، وعلم ، وعمل ، فلا تصوف إلا بفقه ، ولا فقه إلا بعقيدة وإيمان [4] .

والتصوف عند الصوفية «هو رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع ، يرده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة ، وهذا الزهد والحلم والبر والإخلاص والصدق ، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في

(1) حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، حققه وقدم له د . جميل صليبا ، د . كامل عياد ، دار الأندلس ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الحادية عشر 1983 ف ص 130 ـ 132 .

(2) محمد فريد وجدي مصدر سابق ص 586 .

(3) د . محمد مصطفى صوفية مصدر سابق ص 213 .

(4) د . محمد مصطفى صوفية المصدر السابق ص 215 .

الأُخرى [1] .

ويقول أبو الحسن الشاذلي « التصوف تدريب النفس على العبودية ، وردها لأحكام الربوبية ، وكان أوائل المتصوفة يقرون بأن التعويل على الكتاب والسنة ، وإنما لبس الشيطان على المتصوفة لقلة علمهم » [2] .

أما عبدالرحمن بن خلدون فيرى « هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة [3] .

2. منهجية لدراسة التصوف

من ركائز هذه المنهجية أن نعرف حقيقة الشيء قبل أن نحكم عليه ، لأن الحكمة تقول : (الحكم على الشيء فرع عن تصوره) ، ولن يستطيع الحكم على التصوف قضاء له أو عليه ، إلا من عرف معناه ومبناه ، وأدرك قضاياه ، وعرف مدارسه ، وصنف كل صنف كما يفعل القائمون بأمر القضاء ، حيث يفصلون بين الجزئي والكلي ، المدني والجنائي .

والتحديد العلمي الدقيق لمقولات المتصوفة وعقائدهم وممارساتهم يدلنا أن الميدان واسع المدى ، والبحر يكاد يكون بلا ساحل ، فلكي لا يغرق الباحث في خضم الولاء أو البراء ، عليه أن يكون من أهل المعرفة ، وهذا التصنيف العلمي الدقيق يساعد على العدل في الحكم ، وفي البعد عن الجهل والجور ، وبه تحصل النجاة .

الرِكيزة الثانية لمنهجية دراسة التصوف الحيدة وعدم المجاملة أو التحامل ، فالمجامل يدخل في التصوف ما ليس منه ، والمتحامل ينسب للتصوف السني ما لا يدخل فيه .

---

(1) د . عبدالقادر محمود ، الفلسفة الصوفية في الإسلام ـ مصادرها ونظرياتها ، مكانتها من الدين و الحياة ، دار الفكر العربي « د . ت » ص 190 .

(2) د . محمد مصطفى صوفية مصدر سابق ص 217 .

(3) عبدالرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مؤسسة التاريخ العربي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت لبنان « د . ت » ص 467 .

والحيدة في الحكم هي بلا شك من أساسيات المـنهج العلمـي الـسليم ، فلابـد للباحث من وصوله للقناعة كفاحاً لا تقليداً وإنسياقاً .

3. ضرورة دراسة التصوف

يمثل التصوف ظاهرة بـارزة في عالمنـا الإسـلامي ، وبقـدر بـروز الظـاهرة يـبرز الاختلاف حولها ، وتجاهل دراسة التصوف لا يحل قضية الاختلاف حولـه ، والتـصوف بكليته بين مادح وقادح ، وبين موالٍ شديد الولاء له .

والقـضايا المختلـف حولهـا في عالمنـا المعاصـر اليـوم لا ينبغـي أن تظـل بـلا تمحيص في عصر ، سمته المعرفة والعلم وحرية الفكر والتعبير والحـوار ، إنـه العـصر الذي تنتظم فيه صحوة إسلامية ناهضة ، ويقع العـالم الإسـلامي فيـه تحـت ضـغوط مـا شهد مثلها حتى في أيام الحروب الصليبية .

إذن لابد لحركة الصحوة الإسلامية أن تتلمس طريقها ، حتى تـبني النهـضة علـى الدعائم الثابتة ، وتزيل الركام والأنقاض من سـاحاتها ، لـذلك فـإن بعـض البـاحثين [1] لاحظ أهمية دراسة التـصوف بطريقـة مفـصلة ، أود أن أضـعها في شـكل أسـئلة تكـون الإجابة عليها ميسورة :

1. التصوف يمثل جزءاً مهماً مـن تـراث المـسلمين ، وإنـه قـد أثـر في مجـرى الحيـاة الإسلامية لفترة طويلة ، لا تزال ممتدة ، فهل يمكن إهمال دراسته ؟.
2. هذه الظاهرة تمثل جزءاً هاماً من الجانب الروحي في الإسلام ، وهـو جانـب الزهـد والعبادة والنُسك ، فهل هذه الظاهرة هـي الـسبيل الوحيـد لتحقيـق الـصفاء الروحـي والسعادة في الدارين ؟ أم أن هناك وسائل أخرى لا تتصل بالتصوف وتؤدي للنتيجـة نفسها على ما يزعم بعضهم ؟.
3. هل هناك موازنة في التـصوف بـين مطالـب الجـسد ومطالـب الـروح وأشـواقها إلى الترهب والزهادة ؟ وهل الأخذ بالماديات يعتبر منافياً لقواعد التصوف ؟.
4. ما هو دور التصوف في جذب غير المسلمين من أهل الملـل والأديـان الأخـرى إلى نور الإسلام ، والمعلـوم أن النـصارى والبـوذيين والهنـدوس وغـير الملتـزمين بـدين

(1) د . عبدالله حسن زروق ، منهجية لدراسة التصوف « أصول التصوف» دار جامعـة أم درمـان الإسـلامية ـ أم درمـان السودان 1993 ف ص 7 ـ 9 .

يتخبطون الآن وسط الأوروبيين ، ويحاولون اجتذاب من عصفت بهم أدواء الحضارة المادية إلى حضيرة أديانهم ، وذلك لشعورهم بالفراغ الروحي الهائل الذي أحدثته هذه الحضارة المادية ، وأصدق مثال على ذلك انتشار التصوف غير الإسلامي في أوروبا ، ونأخذ مثالاً لذلك انتشار مذهب « قورومهاريشي » الهندوسي ، ومذهب « الدلاي لاما » البوذي ، وحلقات عبادة الأرواح الشريرة « الشياطين » في الغرب بصورة عامة . ونأخذ مثالاً آخر لمصلحة انتشار التصوف الإسلامي من انتشار الطريقة الشاذلية والطريقة البرهانية في أوائل التسعينات في بريطانيا وألمانيا .

5. لكل هذه الإعتبارات وغيرها لا يمكن تجاهل دراسة التصوف ، لأن التصوف يحوي تجارب في مجالات الدعوى والتبتل والعبادة وقيادة الناس وسياستهم وتربيتهم ، ولما يحوي من الحكم والتجارب والمعارف والأسرار والغوامض التي آن الزمان للكشف عنها .

4. حقيقة التصوف

من أصعب الأمور على الباحث أن يجد تعريفاً للتصوف يتفق عليه الناس ، أو يكون مقبولاً لدى الباحثين ، وصعوبة المسألة ترجع إلى الاختلاف حول حقيقة التصوف ذاتها وحول تسميته ، ومصدر اشتقاقه وبداية نشأته ، إذ التصوف على رأي أكثر الباحثين ينقسم إلى ثلاثة أقسام بحسب ما لوحظ من ظواهر في المبنى العام له : (1)

1. التصوف السني .
2. التصوف البدعي .
3. التصوف الفلسفي .

ولا يهمنا في هذه العجالة الخوض في بحر هذه التقسيمات والاختلافات بقدر ما يهمنا تلمس الوصول إلى المفهوم الذي يقبله الملتزمون بالأصول الشرعية حول التصوف معنى ومبنى .

إن التصوف في مبناه اللغوي مشتق من التصوف شعار الصوفية الزاهدين في

(1) د محمد عثمان صالح ، التصوف ودوره في نشر الإسلام في أفريقيا ، ورقة مقدمة إلى ملتقى التصوف الإسلامي العالمي في الفترة ما بين 22 ـ 24 ربيع الآخر الموافق 16 ـ 18 الفاتح 1424 ميلادية 1995 ف ، جمعية الدعوة الإسلامية ص 364 .

لبسهم أكسية الصوف دلالة على تقشفهم وورعهم وزهدهم في زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، لأن البنية اللغوية تستقيم إن قلت صوفي نسبة للصوف ، ولا تستقيم مع غير هذه النسبة ، مما قيل فيه إنه مشتق من النسبة لأهل الصفة أو الصفوة من النساك أو المجاهدة للوصول للصفاء أو من النسبة للصف الأول في الصلاة أو من النسبة للكلمة اليونانية « سوفيا » التي تدل على طلب الحكمة ، كل ذلك جاء زيادة على الأصل حيث ينظر أصحاب كل زاوية من زاويتهم التي تخالف هذا المفهوم أو ذاك في النظر إلى نوعية التصوف المراد .

5. العوامل المؤثرة في نشؤ التصوف

يختلف الباحثون في مجال التصوف الإسلامي بخصوص العوامل المؤثرة في نشأته وقد ظهر هذا الخلاف منذ أواخر القرن التاسع عشر ، ثم قوي واشتد في الثلث الأول من القرن الماضي ، فمنهم من يرى أن التصوف الإسلامي وليد عوامل داخلية تمثلت في القرآن الكريم وشخصية الرسول ﷺ والحديث الشريف ، وفريق آخر يرى أن التصوف الإسلامي وليد ظروف ومؤثرات خارجية ، ولكنهم لم يتفقوا على هذه المؤثرات مجتمعة ، فمنهم من قال بقوة أثر التصوف الهندي ، وآخر يرى أن التصوف الإسلامي نتاج فارسي خالص ، وثالث حاول تفسير بعض ظواهر التصوف الإسلامي في ضوء الطقوس المسيحية وحدها ، بل هناك من رد الآراء الصوفية الدقيقة إلى الأفلاطونية الحديثة .

الفريق الأول : القائلون بالعوامل الداخلية [1]

هؤلاء يرون أن تعاليم الإسلام بما فيها من ترغيب وترهيب ، ودعوة إلى الطاعة والعبادة وتحقير لشؤون الدنيا وتذكير بالآخرة ، كان الباعث الأول على النسك والزهادة ، فالقرآن الكريم ، كسائر الديانات السماوية ، قلل من شأن الحياة الدنيا، وحقرها في حين عظم مقام الآخرة وأعلاها .

قال تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [2] ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [3] ، كما أن هناك آيات كريمة لعبت

(1) د . رؤوف الشمري ، مصدر سابق ص 17 .
(2) الحديد: 20 .
(3) العنكبوت : 64 .

دوراً مؤثراً في توجيه الأتقياء إلى التقرب من الله سبحانه ، بالعبادة والمجاهدة والزهد في الدنيا ، آملاً في الفوز العظيم بالنعيم الدائم كقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (1) .

وإذا ما انتقلنا إلى سيرة الرسول ﷺ فمن المتفق عليه أنه ﷺ كان يخلو إلى نفسه ، بهدف التأمل في هذا الكون وخالقه جلت قدرته ، هذا التأمل أضفى عليه ﷺ صفاء نفسياً ، مهد لامتلاء قلبه الشريف بنور الحق حتى قيل : إن محمداً عشق ربه ، كما أن لأقواله التي تحث على الزهد والعبادة والتواضع في الحياة واعتزال الدنيا والتزام التبتل والتهجد ، أثراً ملموساً في نفوس الصوفية .

ومن العوامل الداخلية الأخرى المؤثرة في نشوء التصوف الإسلامي علم الكلام الذي يعده البعض مصدراً مهماً من مصادر التصوف الإسلامي . مستدلين على ذلك بما يردده أعلام الصوفية من مصطلحات كلامية مشهورة في العديد من مصنفاتهم .

الفريق الثاني : القائلون بالعوامل الخارجية

هؤلاء يرون أن نشوء التصوف الإسلامي متأثر بثقافات عدة ، أبرزها الثقافة الهندية واليونانية والمسيحية . فالتصوف الهندي يتضح أثره في التصوف الإسلامي كما يرى هؤلاء من خلال الطقوس الدينية والرياضات الروحية وأساليب مجاهدة النفس عند الفريقين ، ذلك أن المسلمين تعرفوا إلى الهند في مطلع القرن الثاني الهجري ، وما أعقب ذلك من ترجمة للآثار الهندية والبوذية ، فضلاً على أن العلاقات التجارية لعبت هي الأخرى دوراً مهماً في هذا المجال .

ومن أبرز المفاهيم الهندية التي قيل إن التصوف الإسلامي قد تأثر بها « مفهوم الفناء » إلا أن المقارنة بين المسلكين في تناول هذا المفهوم تنبئ بفروق عدة منها :

- الفناء في الثقافة الهندية والبوذية بصفة عامة ، هو ذوبان في المطلق والتلاشي فيه وهذا الفناء المطلق تسميه البوذية « النيرفانا » وتصفه بأنه ذروة السعادة لأنه التحرر من كل القوالب والأشكال والخروج من حياة القيد إلى حياة الإطلاق ، أما في دائرة الصوفية لدى المسلمين بصفة عامة فهو الفناء عن الصفات البشرية والبقاء بجوار الله ، فالفناء في الأول إلى التلاشي وفي الثاني إلى البقاء .

(1) المزمل: 8 .

- التشابه الذي يوجد بين النيرفانا الهندية والفناء الصوفي إنما هو تشابه سطحي ذلك أن المذهب الهندي في النيرفانا هو المذهب الذي يتصور النفس الإنسانية ، وقد فقدت فرديتها في طمأنينتها المطلقة التي لا تشوبها شائبة من حس أو شهوة والمذهب الصوفي في الفناء ، وإن كان يدعو كذلك إلى فقدان الفردية ينظر إلى البقاء الدائم على أنه يوجد في المشاهد الذوقية للجمال الإلهي ، أما بالنسبة للثقافة اليونانية فيرى القائلون بتأثيرها في التصوف الإسلامي إذ ذلك يلتمس من خلال عدة مفاهيم ، تناولها المتصوفة المسلمون ، أبرزها « وحدة الوجود» التي قال بها بعض فلاسفة اليونان . والواقع أن هناك فرقاً واضحاً بين وحدة الوجود التي عليها بعض فلاسفة اليونان ووحدة الوجود التي عليها الصوفية ، فهؤلاء الفلاسفة عندهم أن الروح والمادة شيء واحد في حين أن الصوفية يفرقون بين الله تعالى والعالم ويرون أن العالم الظاهر لا وجود له حقاً وإنما الوجود لله تعالى ، فليس هو العالم ولا العالم هو .

ويبدو أن القائلين بتأثير التصوف الإسلامي بالثقافة المسيحية ، سيما بعض المستشرقين ، لم يهتدوا إلى التمييز بين التفاعل والتأثر ، فهم يعزون أيضاً عامل الزهد وهو أساس التصوف الإسلامي إلى التأثر بالمسيحية ، غافلين أن المؤثر الفاعل في تركيز الزهد في نفوس المسلمين ومنهم الصوفية هو الرسول ﷺ من خلال أفعاله وأقواله .

خاتمة

يعيش المسلمون اليوم واقعاً مؤلماً ، أقل ما يقال فيه ، بعدهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهذا البعد هو الذي أدى بهم إلى التشتت والتشرذم والتفرقة ، وقد كان نتيجة حتمية لصراعات شتى ، وظروف تاريخية متعاقبة كان من أبرزها تلك السياسات العقيمة وتلك المناقشات والحجاجات السقيمة التي طبعت بظاهر الواجب والدفاع عن الحق بينما هي في الحقيقة علة خبيثة مازالت تنخر في جسم الأمة الإسلامية وتتفاعل في داخل أوطانها وهي تبني من الظلال والأوهام ما تغطي به على البصائر ، وتعمى الأبصار ، وتتخبط به الأفكار ، وتستكين له الهمم ولذلك وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم من تخاذل وضعف ومن أحزاب وفرق ، تعمل كل منها وفق أطر معينة من التفكير والتنظيم تجد فيها الغث والسمين . وإن كانت جميعها تهدف كما تدعي إلى تطبيق الإسلام والدعوة إلى اعتماد الكتاب والسنة وفقاً لما أراده الله تعالى ورسوله

الكريم .

ومن جراء هذه الدعوات أصبح الإسلام يوصف بالإرهاب وأن الإرهاب صناعة إسلامية وأن الإسلام يفتقر إلى الحوار والإقناع ، وهو سبب تأخر المجتمعات الإسلامية، وهذا راجع إلى ظهور طوائف وحركات ، الإسلام براء منها ولا تمت له بصلة ، حركات تدعو إلى تكفير المجتمع واستخدام العنف والقوة لتحقيق أغراضها في السيطرة . وفي ذات الوقت ظهرت حركات أخرى تدعو إلى الحوار والإقناع بالحجة والبرهان والفكر الإسلامي يقوم على الحوار كأساس للتعامل والتعايش والنظر للآخر .

ولقد تعرضت الصوفية إلى الكثير من التشويه وتمت الإساءة إلى الصوفية من خلال إلصاق بعض الشعائر والطقوس الدينية التي ليس لها علاقة لا من قريب ولا من بعيد ولم تكن تلك الطقوس والشعائر سوى دروشة مارسها البعض .

ختاماً لابد من القول بأن التصوف إجمالاً هو استبطان منظم للتجربة الدينية ولنتائج هذه التجربة ، أنه ظاهرة إنسانية ذات طابع روحي لا ينحصر في أمة دون أخرى ولا يحده زمان ولا مكان تشترك فيه سائر الأمم والشعوب بمختلف لغاتها وأجناسها ولكن تبقى الحقيقة الأكيدة وهي أن لكل مجتمع ثقافته التي يتسم بها ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها ، إن الثقافة طريقة خاصة تميز كل أمة معينة عن أمم أخرى . ولكل أمة خصوصيتها الثقافية رغم تأثير ثقافات الأمم المختلفة بعضها في بعض قليلاً أو كثيراً .

توصيات ومقترحات

1. ضرورة دراسة التصوف دراسة منهجية في الجامعات ومراكز البحث العلمي لتبني التصوف السني ونبذ التصوف البدعي والفلسفي .
2. الاهتمام الكامل بجذب غير المسلمين ودعوة أهل الملل الأخرى إلى نور الإسلام عن طريق الدعوة بالحوار والاقناع ونبذ العنف والتطرف والإرهاب .
3. الاهتمام برعاية الشباب والنساء وإنقاذهم من الفراغ الروحي العريض الذي جلبته وسائل الحضارة المعاصرة ومن وسائل البث الإعلامي المباشر « الفضائيات » .

مصادر ومراجع

الكتب

1. حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذي العزة والجلال ، حققه وقدم له : د . جميل صليبا ، د . كامل عياد ، دار الأندلس . بيروت ، لبنان الطبعة الحادية عشر **1983** .
2. سميح عاطف الزين ، الصوفية في نظر الإسلام ، دراسة وتحليل ، الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب العالمي ، بيروت لبنان ، الطبعة الرابعة **1993** .
3. عبدالرحمن بن خلدون ، مقدمة إبن خلدون ، مؤسسة التاريخ العربي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان بدون طبعة ولا تاريخ .

الموسوعات والملتقيات

4. أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي في الفترة ما بين **22** ، **24** ربيع الآخر الموافق **16** ، **18** الفاتح **1424** من ميلاد الرسول ﷺ « سبتمبر » **1995** ف . جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس الجماهيرية العظمي ، الطبعة الأولى **1426** ميلادية **1997** ف .

الدوريات

5. مجلة فضاءات ، العدد العاشر الحرث نوفمبر **2003** ف ، دورية تصدر عن المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ، طرابلس الجماهيرية العظمى .
6. مجلة الجامعة الأسمرية ، العدد الأول **1371** و. ر الموافق **2003** ف دورية تصدر عن الجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية ، زليتن الجماهيرية العظمى .